بحوث ودراسات

مقاصد القرآن في تزكية الإنسان

عبد المجيد النجار*

الملخص

اتّجهت الجهود التي بُذلت في بيان تزكية الإنسان في أغلبها إلى تزكية الإنسان في بُعده الفردي، ولم يكن لتزكية الإنسان في بُعده الجماعي إلا الحظّ اليسير، كما اتّجه أغلبها في تزكية الفرد إلى بُعده الروحي تصفيةً بالفضائل والعبادات، وترويضاً للنفس على كبح الشهوات واكتساب الفضائل، وكلُّ ذلك كان في الغالب من أجل الخلاص الفردي في يوم الحساب، وكان عند البعض مقترناً بهجران مشاغل الدنيا، والقعود عن أيّ كسبٍ ماديٍّ فيها.

ولا نرى أنَّ التزكية كما جاء التوجيه إليها في القرآن الكريم تقفُ عند هذا الحدِّ الذي انتهى إليه الأكثرون في هذا الشأن، وإنما هي تتجاوز البُعد الفردي في الإنسان إلى البُعد الجماعي فيه، وتتجاوز البُعد الروحي إلى الأبعاد الفكرية والعملية، وتتجاوز هدف الخلاص الفردي في يوم الحساب إلى التعمير في هذه الدنيا التي هي مزرعة الآخرة. وهذه الأبعاد هي التي حاول هذا البحث بيانها استكمالاً للمفهوم الشامل للتزكية كما جاء في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة.

الكلمات المفتاحية: مقاصد القرآن، تزكية الإنسان، تزكية الروح، تزكية الفكر، إقامة العمران.

The Quranic Purposes of Purification of Man

Abdelmajid Al-Najjar

Abstract

Most efforts made in explaining the purification of Man tended to address purification of the individual dimension, not the society. It also tended mostly to purify the spiritual dimension through acquiring virtues and worship and self-restraint to curb whims and self-desires for the sake of individual salvation in the Day of Judgment. Some people would associate this trend with the abandonment of worldly issues and giving up any material gain.

Purification as instructed in the Holy Quran does not stand at the above mentioned points. Purification transcends the individual dimension to the collective one, and the spiritual dimension to the intellectual and practical. It also transcends the purpose of individual salvation in the hereafter to build human civilization in this world; as this world is considered the farm to grow what would be the harvest in the Hereafter. This paper attempts to present this comprehensive concept of purification as explained in the Holy Quran and in the honorable Sunnah of the Prophet.

Keywords: Quranic purposes, Purification of Man, Spiritual purification, Intellectual purification, Civilization building.

---

* دكتوراه في العقيدة والفلسفة من جامعة الأزهر سنة 1981م، رئيس المركز العالمي للبحوث والاستشارات العلمية بتونس. abdelmajidn10@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ 2018/2/10م، وقُبل للنشر بتاريخ 2018/9/3م.

مقدمة:

خُلق الإنسان من أجل أن يقوم بمهمّة؛ هي مهمّة عمارة الأرض بحسب ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61)، فهذا الربط بين نشأة الإنسان واستعماره الأرض إنَّما هو جارٍ على عادة القرآن الكريم في جعل المراد بين خلق مخلوقاته وذكر مهامّها، دالّاً على أنَّ تلك المخلوقات إنما خُلقت من أجل أداء تلك المهامّ. وإذ قد خُلق الإنسانُ لإنجاز مهمّة عمارة الأرض فإنَّه قد رُسم له المنهج الذي يمكّنه من الاستعداد لأداء أمانة التكليف التعميري التي تستلزم بحسب طبيعتها بذل الجهد إعداداً تزكوياً، ثمّ إنجازاً عملياً بناءً على ذلك.

وقد خُلق على مقدّرات مادّية ومعنوية تهيّئهُ لأنْ ينهض بهذه الأمانة وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين: 4)، وهذا التقويم الأحسن إنما هو تلك الفطرة التي بُني عليها الإنسان في كيانه الفردي وفي كيانه الجماعي، فهو ذاتٌ فرديةٌ جمعت بين روح توّاقة إلى المطلق، وجسم موصول بعالم المادّة، وبين عقل يكابد الحياة بصرامة المنطق، وأحاسيس تُضفي عليها الطراوة واللين، ثم هو ذاتٌ جماعيةٌ فُطرت في طبعها على التمدّن، وتتوقّف حياتها على التعاون.

غير أنَّ الله تعالى شاءت حكمتُه أنْ لا يُخلَق الإنسانُ على كمال التقويم بالفعل، وإنما خلقه على فطرةٍ تحمل بالفعل شطراً من كمال التقويم، وترك الشطر الآخر من الكمال كامناً بالقوّة، وتُرك للإنسان أنْ يسعى بكدحه الذاتي ليحصّله كمالاً بالفعل: روحٌ توّاقةٌ للمعالي، عليه أن يرقّيها في سلّم الفضائل، وعقلٌ بُني على مبادئ منطقية كبرى، عليه أن يرقّيه في سلّم المعارف، وجسمٌ أُعدَّ في تقويمه للتعامل مع البيئة الطبيعية عليه أن يرقّيه بكسب المهارات، ونزوع إلى المدنية عليه أن يرتقي به إلى التعارف الجمعي، وعناصر متقابلة في كيانه الفردي وفي كيانه الجمعي، عليه أن يرتقي بها إلى كمال التعادل، وكلُّ ذلك من أجل أنْ ينهضَ بمهمّة العمارة التي من أجلها خُلق، والتي لا تتحقّق إلّا بهذا الكمال بشطريه؛ المطبوع والمكسوب، وكلّ ذلك تشريفٌ له، وإعلاء من شأنه؛ إذ لو خُلق في تقويمه الأحسن على الكمال بالفعل فماذا يبقى له من شأن وعمارة الأرض يحصّلها تلقائياً بلا كدح؟

إنَّ ذلك الشطر من الكمال الذي هيّأته له الإرادةُ الإلهيةُ بالقوّة، وترك حصوله بالفعل لتحصيله بالكدح هو المقصود بالتزكية مصطلحاً قرآنياً تردّد كثيراً في آي الذكر الحكيم، وهو في معرض التعدّد في اشتقاقاته واستعمالاته لا يعدو معنى التنمية والترقّي والتطهير، قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (فاطر: 18) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ (الليل: 18)، واجتمعت تلك المعاني كلها في الشعيرة الأعظم شعيرة الزكاة، فهي تنميةٌ للمال، وتطهيرٌ وترقيةٌ للنفس بمغالبة أعتى شهواتها شهوة المال، ليصبح الإنسانُ متحرّراً من عبوديته التي هي باب من الأبواب الواسعة للارتكاس.

فتزكية الإنسان إنما هي ما يبذله من جهدٍ في سبيل الارتقاء بذاته الفردية والجماعية، ليصعد في سُلّم الكمال، منطلقاً من ذلك الشطر الذي فُطر عليه من كمال بالقوّة ليحصّل بالفعل بكسبه قدر طاقته ذلك الشطر من الكمال الذي عليه أن يحصّله بالفعل، ارتقاء في الذات الفردية روحياً وعقلياً وجسمياً، وارتقاء في الذات الجمعية بالتعارف والتآخي والتناصر، وارتقاء في كلّ ذلك في إقامة المعادلة الصعبة بين المتقابلات في الكيان الفردي، وفي الكيان الجمعي، فيبلغ الدرجة التي بها يستطيع أن ينهض بعمارة الأرض، وإلّا يفعل ذلك يكن كمن قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (الأعراف:176) فهو قد سفُل في سلّم الإنسانية بإخلاده إلى الأرض والحال أنّه طُلب منه التزكّي بالرفعة، فانحطّت طاقته عن التعمير، وأخلَّ بهذه المهمّة بإخلاله بالتزكية التي جاءت مقصداً عظيماً من مقاصد القرآن الكريم؛ إذ هو الذي يقوم عليه التكليف بعمارة الأرض.

ومع أن معنى التزكية قد استجمع مدلولها اللغوي القائم على مفهوم النموّ والترقّي في القوى الفردية والجماعية، فإنّ هذا المدلول الشامل قد انحسر عند بعض المسلمين ليقتصر على البُعد الفردي في الإنسان من حيث الترقّي الروحي؛ تقوى وإخلاصاً وتحريراً للنفس من غواية الشهوة، وتصفية لها بالتريّض من أدران المادّة، حتى أصبح هذا المعنى الضيق من معاني التزكية هو الشائع، وأُهملت إذن سائرُ المعاني الأخرى للتزكية التي تشمل الأبعاد الفردية والاجتماعية أفقياً، وتشمل عمودياً سائرَ القوى في الفرد عقلاً وجسماً وحسّاً،

وسائر القوى في الجماعة تآخياً وتراحماً وتعاوناً وتضامناً، وهو الأمر الذي ينبغي فيما نقدّر تصحيحه، كما سنحاول القيام به في هذه الورقة.

أولاً: الوعي بحقيقة الإنسان أساساً للتزكية

إنّ تزكية الإنسان نفسَه في بُعدها الفرديّ والجماعيّ تزكيةً شاملةً على المعنى الذي شرحنا، لا يمكن أن يتمَّ إلا إذا كان الإنسانُ على قدرٍ من العلم بحقيقة نفسِه التي يعمل على تزكيتها، سواء حقيقتها الذاتية الفردية والجماعية، أو حقيقتها في علاقتها بالمجال البيئي العامّ الذي تعيش فيه، وإلاّ فكيف يزكّي الإنسانُ نفسَه وهو لا يعرف طبيعتها وقدراتها وآفاقها والغاية من وجودها، ومنزلتها القيمية في الكون؟ إنه إذن سيتعامل بالتزكية مع كائن مجهول لا يعرف له قيمة ولا غاية ولا منزلة في الكون، فلا يظفر من سعيه التزكوي بطائل، وكيف يكون للإنسان تزكية لذاته لو وقر في نفسِه أنّه كائنٌ مهينٌ محدودُ الأفق، معدومُ الغاية، مُستضعَفٌ بين الكائنات؟ إنه إذن سيجد نفسه قابعاً في وجوده الماديّ الحيوانيّ لا يجد إلى الترقّي سبيلاً، بل لا يكون على وعي بهذا الترقّي أصلاً.

من أجل ذلك فإنّ القرآنَ الكريم وهو يدعو الإنسان إلى تزكية نفسه ويرشدُه إلى سُبل ذلك ما يفتأ في ثنايا إرشاده يعرّفه بحقيقة نفسِه في أبعادها المختلفة الفردية والجماعية، وفي علاقته القيمية بالكون الذي يعيش فيه، وكأنّه يقول له: أيها الإنسان جاهد نفسك الفردية والجماعية لتترقّى في سلّم الإنسانية؛ فإنّك ذو شأن عظيم في ذاتك وفي منزلتك الكونية؛ ولذلك فإنّه يحسن أن يسبق بيانَ مقاصد القرآن في تزكية الإنسان بيانُ حقيقة الإنسان مبدأً وقيمةً ومنزلةً في الكون، كما جاءت في القرآن الكريم، أساساً للتزكية التي يجاهد الإنسان في سبيلها، وهو علم بحقيقة نفسه.

1. مبدأ الإنسان:

يفيد التصوير القرآني لخَلق الإنسان أنّ هذا الخلق كان حادثةً طارئةً في تاريخ الموجودات الكونية، ولم يكن عملية تطورية انقلب فيها هذا الكائن على تطاول من الزمن من حال إلى حال حتى أصبح إنساناً، فقد كانت الموجودات الكونية قائمةً ومسمّاةً

بأسمائها، ثم في لحظة محددة من الزمن خلق الله تعالى الإنسان في صورته المكتملة، وبمكوناته الجسمية والعقلية التي هو عليها الآن، ذلك ما يفيده المشهد الذي أعلم الله تعالى فيه أنه سيخلق كائناً جديداً يكون خليفة في الأرض، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: 30)، فهذا الكائن المخلوق من أجل أن يكون خليفةً لا يمكن أن يضطلع بهذه المهمة إلا وهو مكتمل الخلق؛ جسمياً وروحياً وعقلياً، وهو ما يدل على أنه خُلق في تلك اللحظة الزمنية المحددة على وجه الاكتمال، ولم يكن متطوراً عن كائنات أدنى، فلا تعرف له إذن بدايةٌ زمنيةٌ على وجه التحديد.

ولم يكن وجود الإنسان في تلك البداية المحددة من تاريخ الكون إلا لحكمة أرادها الله تعالى، سواء من حيث نوع هذا المخلوق، أو من حيث توقيت خلقه، وإذا كانت تلك الحكمة غيرَ مصرّحٍ بها على وجه التفصيل، إلا أننا نعلمها على وجه كلي يقيناً بما هو ثابت من صيانة أفعال الله تعالى عن العبث، كما يمكن أن نستخلصها من إشارات قرآنية، ومن استنتاجات عقلية تدعمها، فالإنسانُ بجمعه بين عنصري المادة والروح يُعدُّ تماماً واكتمالاً لمنظومة المخلوقات السابقة التي كانت متمحضة للروح كالملائكة، أو متمحضة للمادة وهي سائر المخلوقات، فبه إذن اكتملت دائرةُ الموجودات الكونية، ليتجلّى بذلك النسق البديع في المشهد الكوني إظهاراً لقدرة الله تعالى.

ولا يبعد عن هذا المعنى من معاني الحكم الإلهية أن يكون خلق الإنسان مظهراً من التفضّل الإلهي يظهر فيما ينعم به الله تعالى من نِعَم في الدنيا والآخرة، كما أشار إليه القاضي عبد الجبار في قوله: "اعلم أن وجه الحكمة في خلق المكلف [الإنسان] أنه تعالى خلقه لينفعه بالتفضّل ويعرّضه للثوابِ."[1] وبالجملة فإنَّ وجود الإنسان لا مجال فيه حسب التصور الإسلامي للعبثية، كما هو شأن فلسفات أخرى قديمة وحديثة، وإنما هو مبنيٌّ

[1] القاضي عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار الأسدآبادي. **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م، ج11، ص134، انظر أيضاً:

– الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود. **كتاب التوحيد**، تحقيق: فتح الله خليف، بيروت: دار الشروق، 1970م، ص96 وما بعدها.

على حكمةٍ سواء من حيث ذاته، أو من حيث مبدأه الزمني.[2] وأن يستقرّ في وجدان الإنسان أنّه خُلق لحكمة يُعدُّ دافعاً نفسياً قوياً لأن يزكّي الإنسان نفسه ليحقّق المقتضيات العملية لتلك الحكمة.

2. قيمة الإنسان:

لئن كان الإنسانُ في التصور الإيماني الإسلامي جزءاً من الكون، يجري عليه ما يجري عليه من سنن مادية، إلّا أنّه في سُلّم القيمة ينفرد بالدرجة العليا في ترتيب الموجودات الكونية، لا يدانيه في ذلك شيء منها، فضلاً عن أن يساويه، وهذه الدرجة القيمية العليا يحتلها الإنسان، باعتبار مطلق إنسانيته، مجردة عن كل اعتبار من الاعتبارات العارضة، وناهيك في ذلك بأنه عند خلقه جمع الله تعالى له الملائكة، وأمرهم بالسجود له، وهم المطهرون الذين لا يعصون الله فيما يُؤمرون، فذلك دليلٌ على ما لهذا القادم الجديد على موجودات الكون من قيمة جعلته يتصدّرها جميعاً في ميزان المفاضلة بينها، وذلك ما قرّره الإمام الرازي مُعللاً هذه الرتبة العالية للإنسان بين الموجودات في قوله: "أشرف الموجودات هو الله تعالى، وإذا كان كذلك فكلُّ موجود كان قربه من الله تعالى أتمّ وجب أن يكون أشرف، لكنَّ أقربَ موجودات هذا العالم من الله هو الإنسان ... فوجب الجزمُ بأنَّ أشرف موجودات هذا العالم السفلي هو الإنسان."[3] وهذه الدرجة العليا التي بُوّئها الإنسان شاء الله تعالى أن تكون مبنية على قيمة ذاتية خصّه الله تعالى بها في خلقه دون غيره.

وتتجلّى هذه القيمة أول ما تتجلى في شرفية خلقه؛ إذ خصّه الله تعالى في ذلك بعناية فريدة به من بين سائر المخلوقات، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ (ص: 75)، وفي قول الرسول ﷺ: "خلق الله آدم على صورته،"[4] فهذه الخصوصية في خلق الله تعالى آدم بيديه، وفي خلقه على

[2] النجار، عبد المجيد. **مبدأ الإنسان ضمن سلسلة: الإنسان في العقيدة الإسلامية**. الرباط: دار الزيتونة، 1996م.

[3] الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **التفسير الكبير**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ/2000م، ج21، ص13. انظر فيه أيضاً: ج21، ص14 آراء العلماء في المفاضلة بين الإنسان والملائكة، وانتهاء أكثرهم إلى شرفية الإنسان عليهم.

[4] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط1،

صورته مهما كان للمعنى فيهما من مجازية تدلّ على شرفية نالها الإنسان دون غيره في حادثة خلقه. كما تتجلّى هذه الشرفية أيضاً في حُسن التقويم الذي خُلق عليه الإنسان، فهو قد جمع بين ما تفرّق في كلّ الكائنات الأخرى؛ إذ هي إما روح بلا مادة مثل الملائكة، أو مادّة بلا روح مثل سائر الموجودات الكونية الأخرى، وهو جمع بينهما فكان كيانه يشمل جسماً مادّياً وروحاً ذات قوى متعددة نفخها الله فيه وأعلاها قوة العقل، وبالإضافة إلى هذا التكوين المزدوج فإن الكيان الإنساني قُدّر على نحو من فعالية الأعضاء، ومن جمالية المظهر ما أجمل تقريره في إيجاز بليغ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين: 4).[5]

ومن مظاهر الرِّفعة الذاتية للإنسان أن جعله الله تعالى كائناً مكلّفاً بحمل الأمانة بناء على ما كوّنه عليه من عقل يدرك الحقائق، ومن إرادة حرّة يكون بها الاختيار، فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ (الأحزاب: 72)، فتحميل الإنسان هذه الأمانة أمانة التكليف دون غيره من الكائنات إنما هي لعلوّ مقامه، فالمهامّ العظيمة إنما يُختار لها ذوو الرِّفعة في المؤهلات التي تمكّنهم من النهوض بها، ويلحق بهذه الرِّفعة جراء التكليف رفعة بما يترتب عليها من العبودية لله التي تحرّر من كل عبودية لغيره، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ (آل عمران: 139)، فالمؤمن المخلص في عبوديته لله عن إرادة حرّة يكتسب من عبوديته تلك علوّاً لا يكون لغيره، حتى وإن كان خاضعاً لله تعالى على سبيل الحتم، مثل الملائكة وسائر الموجودات الأخرى.

3. الإنسان والبيئة الطبيعية:

تقوم علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية في المعتقد الإسلامي على معنى الوحدة والأخوة بين الطرفين، مهما كان للإنسان من علوّ مقام عليها، ومهما بُنيت عليه البيئة من كونها

1998م، كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام، حديث رقم6227، ص1199.

[5] استفاض كثيرون في وصف علية التكوين الإنساني من وجوه متعددة. راجع في ذلك على سبيل المثال:
- الغزالي، أبو حامد. **الحكمة في مخلوقات الله**، بيروت: دار إحياء العلوم، ط1، 1972، ص45-66.
- الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج21، ص13.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ج30، ص424.

مسخَّرةً للإنسان، فقد جاء البيانُ القرآني والنبوي مؤكداً في مواضع عديدة على هذه المعاني حتى أضحت ركناً أساسياً من الأركان التي تنبني عليها العلاقة بين الطرفين، مع ما ينشأ عن ذلك من آثار فكرية ونفسية وسلوكية في التصرفات الإنسانية إزاء الطبيعة. وتتجلّى الوحدة التي تربط الإنسان بالبيئة حسب ما ورد في البيان الديني في مظاهر متعددة، منها ما هو مادي، ومنها ما هو روحي.

فالوحدة المادية تظهر في وحدة العناصر؛ إذ يقرر القرآن الكريم أنَّ الإنسانَ يوجد من العناصر نفسها التي تتكوّن منها الموجودات البيئيّة الجامدة والحيّة، فحينما يُقارن بما على الأرض من جمادات يتبيّن على ما يبدو في الظّاهر من اختلاف بينه وبينها أنّ أصل تكوينه ليس إلّا ممّا تتكوّن هي منه، معَبَّراً عنه في القرآن الكريم بالتّراب الذي يرمز إلى عناصر المعادن التي تتكوّن منها كلُّ مفردات البيئة على اختلافها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ (الحج: 5). وحينما يُقارن الإنسان بما على الأرض من مظاهر الحياة يتبيّن أنَّ وحدةً في التّكوين جامعةٌ بينه وبينها من أهمّ عناصرها عنصر الماء كما عبّر عنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30)، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ (النور: 45).

وليست الوحدة التي يثبتها القرآن الكريم بين الإنسان والبيئة بمقتصرة على الوحدة المادّية، بل هو يتعدّى بها إلى وحدة بينهما ذات بُعد روحي، وذلك بما يصوّر من رابطة للإنسان بالموجودات البيئيّة تجعله يشعر كأنّما هو من القرب منها، وهي من القرب منه من الناحية الوجدانية بحيث تتكوّن منهما وحدةٌ جامعةٌ من الأخوّة والمحبّة والرّأفة والتّوافق النّفسي. فهذه المعاني كلّها يحرص القرآن الكريم على بثّها وإبرازها في صلة الإنسان بالبيئة بأساليب مختلفة، وفي مقامات متعدّدة، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة، بحيث يستقرّ في الذّهن من مجملها صورة عن هذه الصّلة تتضمّن معنى من الوحدة الوجدانية الرّوحية تتجاوز تلك الوحدة المادّية الجافّة متمثّلة في وحدة العناصر ووحدة القانون.

ولعلّ من أبرز ما يمثّل تلك العاطفة الوجدانية بين الإنسان والكائنات البيئيّة ما جاء في قوله ﷺ في جبل أُحُدٍ لمّا أشرف عليه وهو راجعٌ إلى المدينة من سفر: "هذا جبل نحبّه

ويحبّنا"[6] فهو تعبير عن عاطفة وجدانية هي عاطفةُ المحبّة بين الإنسان وبين هذا الجبل، ويمكن أن تتعدّى هذه العاطفة بالقياس إلى سائر مظاهر البيئة من المخلوقات، فإذا عاطفة من المحبّة والودّ تربط بين الإنسان والبيئة بأكملها.

إذا حصل للإنسان وعي بحقيقة نفسه من حيث مبدأ وجوده، ومن حيث قيمته الذاتية، ومن حيث منزلته في الكون، فإنّ ذلك يكون قاعدةً أساسيةً ينطلق منها في سبيل تزكية نفسه؛ إذ استشعار الرفعة يدفع إلى المضي في تحقيقها واقعاً، واستشعار القيومية على الطبيعة يدفع إلى المضيّ في استثمار مقدّراتها، أمّا استشعار المهانة والدونية والانهزامية فإنها لا تدفع إلّا إلى الانحطاط والقعود والإخلاد إلى الأرض، ولذلك قيل:

من يهن يسهل الهوان عليه فما لجرح بميّت إيلام

وإذا كان من مقاصد القرآن دفع الإنسان إلى الترقّي في منازل الإنسانية فإنّه في سبيل ذلك بيّن للإنسان حقيقة نفسه في قيمته الذاتية، وفي منزلته من الكون، ليكون ذلك منطلقاً لسعيه في ذلك الترقّي المطلوب، سواء بالنظر إليه فرداً أو بالنظر إليه جماعة.

ثانياً: تزكية الإنسان فرداً

تزكية الإنسان الفرد تكون بترقيته لقدراته الذاتية تنمية مستمرّة، كل قدرة بحسب طبيعتها: فالروح تزكيتها بتطبيعها على الفضيلة والخير، ورقيّها يقاس بدرجة تطبّعها على ذلك. والعقل تنميته تكون بإقداره على الوصول إلى الحقّ عند النظر في موضوعات المعرفة الغيبية والمادية، ورقيّه يقاس بمدى قدرته على ذلك. والحوّاس تنميتها بإكسابها القوّة في إدراك المحسوسات من جهة، وفي أداء المنجزات العملية من جهة أخرى، ورقيّها يقاس بما تبلغه من درجة في ذلك، والجسم عامّة تكون تزكيته بتوفير صحّته وسلامته بالغذاء النافع والدواء الناجع والتريّض لإكسابه القوّة على أداء مهمّة العمارة في الأرض على الوجه المطلوب.

والتزكية بهذا المعنى إنما هي في حقيقتها استخراج لقدرات كامنة في الإنسان من طور القوّة إلى طور الفعل، وليس هو إكساباً ابتدائياً لتلك القدرات، فالإنسان قد أودع الله في

[6] البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: أُحُد يحبنا ونحبه، حديث رقم4083، ص775.

فطرته قوىً متعددة يشترك في قدر منها جميعُ أفراد الناس، ويتفاوت الأفراد في القدر الباقي قوّةً وضعفاً؛ ولذلك فإنَّ الترقّي الفردي فيها يكون بالتحصيل الفعلي للقدر المشترك بالنسبة للجميع، ثم بالتحصيل الفعلي بالنسبة لكل فرد لما هو متوفّر عليه من المتفاضل فيه، وذلك كله عبر المعالجة التربوية لذات النفس أو للآخرين، ولعل ذلك هو أحد معاني قوله ﷺ: "اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له."[7] وهو ما أشار إليه ابنُ القيّم في تربية الصبيان؛ إذ يقول: "ومما ينبغي أن يعتمد [المربي] حال الصبي، وما هو مستعدٌّ له من الأعمال، ومهيّأ له منها ممّا كان مأذوناً منه شرعاً، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره."[8] ولعل جماع الفقه في التزكّي الفردي يتمثّل في أمرين أساسيين: حفظ القَوام في الكيان الفردي، وتزكية المنهج المعرفي.

1. التزكية بحفظ القَوام في الكيان الفردي:

القَوام هو المعادلة في كيان الفرد بين قدراته المختلفة، بحيث تُرقّى هذه القدرات على قانون دقيق من التوزان بينها، فيكون ارتقاء الكيان الإنساني ارتقاء تتكامل فيه كل قوى الإنسان وملكاته دون ميل لبعضها على حساب بعض. فيتحقّق بالفعل ما خلق الله عليه الإنسان من تقويم وفق قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين: 4)، وفيما نقدّر فإنّ من أبرز معاني التقويم التعادل بين قوى الإنسان التي أُودعت فيه، فلا يجور بعضها على الآخر فينخرم توازن الإنسان، ولعلّ لهذا الاشتقاق علاقة بالقَوام الذي قال في شرحه ابن عاشور: "وَالْقَوَامُ بِفَتْحِ الْقَافِ: الْعَدْلُ وَالْقَصْدُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ"[9] والذي جاء في القرآن الكريم مطلوباً في حياة الإنسان كلّها، فكأنّ التقويم هو ما خُلق عليه الإنسان من تعادل القدرات بالقوّة، والقوَام ما يكسبه الإنسان بالتزكية لتحقيق ذلك القَوام بالفعل.

---

[7] مسلم، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط1، 1998م، كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، حديث رقم2649، ص1062.

[8] ابن القيّم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. **تحفة المودود باحكام المولود**، بيروت: دار الكتاب العربي، 1979م، ص144، انظر أيضاً:

– النحلاوي، عبد الرحمن. **أصول التربية الإسلامية**، دمشق: دار الفكر، 1979م، ص102.

[9] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج19، ص72.

ومن عناصر التقويم في الكيان الإنساني ما خُلق عليه الإنسان من تعادل بين عنصري التكوين فيه: الروح والمادة، فالذات الإنسانية تتألّف من هذين العنصرين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ (الحجر: 28-29)، ولكلّ من هذين العنصرين مطالب فطرية تتلاءم مع طبيعته، فالروح تطلب السّموّ إلى عالم الخير المطلق، وتتوق إلى التحرّر من عالم المادة، والجسم المادي يطلب الشهوةَ الطينية، ويتوق إلى التحرّر من مطالب الروح. والتزكية المطلوبة من الإنسان هي تنميةُ هذا الكيان المزدوج بالعدل بين عنصريه، فترقّى الروح بإشباعها من عالم الخير المعنوي: فضيلةً ورحمةً وعلماً وتقوى، ولكن في غير تعطيل لمطالب الجسم بما يكون مضاناة وقهراً، ويُرقّى الجسم بإشباعه من مطالب المادة، ولكن في غير إسراف يُفضي به إلى الإرهاق من جهة، وإلى تعطيل الروح عن تحصيل كمالاتها من جهة أخرى.

إنه القَوام المتمثّل في العدل بين الطرفين الذي يجعل الإنسان موصولاً من جهة روحه بالله تعالى، يقبس من نوره الهدى، وموصولاً من جهة جسمه بالأرض يفعل فيها بالتعمير وفق ذلك الهدى، بما ينمّي من قدراته الجسمية الممكّنة له من ذلك، ولعلّ ذلك هو أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: 77) فابتغاء الآخرة يكون بتزكية النفوس وترويضها على العبادة، والنصيب من الدنيا هو تمتيع الجسم بمطالبه المادية، وذلك هو العدل الذي يكون توخّيه تزكية للذات من قبل الإنسان، مبنية على التقويم الإلهي في أصل التركيب لكيانه تركيباً ازدواجياً.

ولو انخرم هذا القَوام التركيبي بالميل إلى أحد العنصرين على حساب الآخر لسقط الإنسانُ في أحد وضعين مرذولين: فإمَّا روحانية مغرقة يضطهد فيها الجسم، فلا يقوى على فعل تعميري، وإمَّا مادية مغرقة تَكِلُّ بها الروح عن أنْ تتّصل بربّها لتستلهم هداه، وتصل الإنسان به على حبل من العبادة. وفي كلا الوضعين يتعطّل الترقّي في ذات الفرد، بل يكون الانتكاس في مجال التعمير، وذلك ما صوّره قوله تعالى في حقّ الوضع الأول: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: 27)،

وهو ما صوّره قوله تعالى في حقّ الوضع الثاني: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 27)، فكلّ من الميل إلى الروحانية المعبَّر عنها بالرهبانية، وهو شأن المذاهب الصوفية المغالية، والميل إلى الجسمانية المعبَّر عنه باتّباع الشهوات، وهو شأن المذاهب المادية قديماً وحديثاً، كلٌّ منهما مناقض للتزكية الساعية إلى العدل.[10]

ومن مظاهر التزكية في ذات الإنسان تحقيق القَوام في المجال المعرفي، وهو العدل بين وسائل الإنسان في المعرفة، فقد خُلق الإنسان على تقويم رُكّبت فيه آلةٌ عقليةٌ وآلةٌ حسّيةٌ تصلانه بالعالم الخارجي لمعرفة حقيقته، والتزكية في هذا الشأن هي ترقية آلة الحسّ بإعمالها في تعرّف المحسوسات، وإكسابها الدّربة المطّردة في ذلك حتى ترتقي صعداً في القدرة على استكشاف مظاهر الكون ورصد دقائقه الحسّية الظاهرة والخفيّة، وبالموازاة مع ذلك ترقية آلة العقل بإعمالها في إدراك الدّلالات المجرّدة للمحسوسات، وإكسابها القدرة على النفاذ إلى الحقّ انطلاقاً من تحليل دلالات الحسّ، وارتقاء في إدراك الحقّ المجرّد في مجال الغيب أو في مجال الحياة، بحيث يترقّى الحسّ والعقل متظاهرين متكاملين بما يمكّن الإنسان من التقرّب إلى الله بالمزيد من معرفة حقيقة وجوده وصفاته وخلقه، وبالمزيد من إحكام السلطنة على الكون بمعرفة مشاهده وقوانينه، وقد جاء هذا المعنى مقرّراً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ (الإسراء:36) فكلٌّ من الفؤاد، وهو العقل، والحواسّ تكون مسؤولةً عن الوصول إلى الحقّ في تظاهر وتكامل.

وحينما ينخرم هذا القَوام المعرفي على غير ما خُلق عليه التقويم بالميل إلى أحد الطرفين على حساب الآخر، فإنَّ الترقّي المعرفي للإنسان لا تتوفر له فرص التحقق؛ إذ العقل دون الحواس لا يصل إلّا إلى مجرّدات من الفكر قد لا يكون لها في الواقع مصداق، وذلك شأن الفلسفات العقلية المغالية، مثل بعض فروع الفلسفة اليونانية،[11] وكذلك

---

[10] النجار، عبد المجيد. **العقل والسلوك في البنية الإسلامية**، تونس: مطبعة الجنوب، 1979م، ص58.

[11] لقد كانت الروح اليونانية بصفة عامة تُعلي شأن العقل وتحتقر الحسّ، ومن ذلك ما وجّهه سقراط من لوم لأنكساقوراس، لاعتماده على الملاحظة الحسّية منطلقاً لمعرفة الله، بدلاً من التعقّل المجرد؛ إذ قال: "لو أنّ أنكساقوراس بدلاً من اعتماده في إثبات وجود الإله على حكمته في سير الكواكب في أفلاكها كان قد اعتمد على

الحسُّ من دون عقل لا يُفضي إلّا إلى علم سطحيٍّ بمظاهر الكون، وذلك شأن الفلسفات الحسيّة المغالية، التي انحبس العلم فيها في دائرة العالم المادي. إنَّ كلّاً من الوضعين يفضي إلى قصور في إدراك الحق، وهل الترقّي الفردي إلا تقدمّاً في إدراك الحقّ في شطر كبير منه؟

ومن مظاهر التزكية في ذات الإنسان مظهر القَوام التوافقي مع الآخرين، ونعني بذلك العدل في ترقية ذات الفرد بين البُعد الفردي والبُعد الاجتماعي فيه. ففي فطرة الإنسان منزعٌ فرديٌّ من الأنانية، يدفعه إلى إثبات الذات وتحقيق الفردية الوجودية، كما أنَّ في فطرته منزعاً اجتماعياً يدفعه إلى التآلف مع الآخرين لحفظ ذاته وحفظ نوعه؛ إذ لا يتأتّى ذلك إلّا بالتآلف الجماعي.[12] وترقية التوافق في الإنسان في هذا الشأن ليصبح قواماً تكون بتنمية البُعد الفردي فيه بحيث يقوّي الاعتزاز بالذّات واستشعار قوة النفس والثقة بها مما يدفع إلى المبادرة والابتكار والفعالية، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يطغى على البُعد الجماعي، فيُميتُه أو يُضعفه، ويكون موازاة لذلك بتنمية البُعد الجماعي في النفس بحيث تنفسح فيها مساحة للآخرين بها يكون التكافل والتآزر والتعاون. وبهذا العدل بين البُعدين في ذات الفرد يكون ترقّيه باستكمال قدرات الإبداع الذاتية من جهة، وتوفيق تلك القدرات في نظم جماعية يتّجه بها إلى الله في تحقيق القيم الإنسانية والمنجزات التعميرية من جهة أخرى. ولعلّ هذا المعنى هو أحد مدلولات قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا

أن خيريّته الممثّلة في داخل نفوسنا تجذبنا إليها دائماً لكان أقرب إلى الحق، وأدنى إلى الحكمة منه إلى نهج العامّة الذين يعتمدون على الحسّ" انظر:

– غلّاب محمد. **المعرفة عند مفكري الإسلام**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م، ص136. أما المسلمون فقد أصبح المنهج العام عندهم منهجاً معتدلاً بين العقل والحسّ وذلك بتأثير من القرآن الكريم، وذلك ما أشار إليه القاضي عبد الجبار في قوله: "إن من الخطأ القول بأن الحواس تقضي على العقول أو العقول قاضية عليها، والصحيح أن يقال: إنها لولا العلم بما يدرك بالحواسّ لما صحّ أن يعلم الإنسان سائر الأمور، ويعبّر عن ذلك بأن علوم الحواس أصل لعلوم العقل." انظر:

– القاضي عبدالجبار، **المغني**، مرجع سابق، ج12، ص57–58.

– إقبال، محمد. **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، 1968م، ص21.

– النجار، **العقل والسلوك في البنية الإسلامية**، مرجع سابق، ص134 وما بعدها.

[12] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**، بيروت: دار الجيل، 2005م، ص39.

﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجـــــرات: 13)، فالذكورة والأنوثة إشارة إلى الخصائص الفردية في الإنسان، وتعارف الشعوب والقبائل، أي تعاونها إشارة إلى البُعد الجماعي فيه، والتقوى التي هي تقدّم في الطريق إلى الله إنما هي التزكية التي تكون من بين ما تكون بالمعادلة بين ذينك البُعدين.

ولو انخرم هذا القَوام بين البُعدين الفردي والجماعي لسقط الإنسان في فردية مجحفة تُلغي الآخرين، فيكون التصادم المُذهب لريح الجماعة، وهو شأن فرعون الذي استعلى وقال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ (غافر: 29)، وهو أيضاً شأن المذهب الفردي السائد اليوم في حضارة الغرب، والذي يُفضي إلى أنانية فردية، كان من مُرّ ثمارها حركة الاستعمار، والحروب العالمية المدمّرة، أو لسقط في جماعية مجحفة تدمّر في الفرد قدرات الإبداع، فإذا هو كالترس في الآلة يدور بدورانها، وهو شأن من وصفهم القرآن الكريم في قولـــه تعـــالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الزخـــرف: 54) فهؤلاء ذواتهم ممحوّة، ولذلك فهم ينعقون مع كل ناعق، وهو أيضاً شأن المجتمعات الشيوعية التي آل قهر البُعد الفرديّ في أفرادها إلى انهيارها وعَودها إلى البؤس والتطاحن، كما هو شأن التجربة الشيوعية الفاشلة. إنه التزكية بالعدل بين هذين البُعدين في الإنسان ليتحقّق به التوازن الذي يمكّنه من أداء مهمّة التعمير.[13]

2. تزكية المنهج المعرفي:

الإنسان في ممارسة العمران يتوقف على خصال في ذات الفرد تكسبه القدرة على الأداء الفردي، وعلى خصال في ذات الجماعة تكسبها القدرة على حشد الجهود الفردية وتوجيهها وترشيدها لترقية الأداء الجماعي، لكنّه يتوقّف أيضاً بصفةٍ أساسيةٍ على منهجيةٍ في الأداء الحضاري، متمثّلة في طرق وأساليب يكون بها الأداء على مستوى الفكر والسلوك معاً. وقد تتوفّر القدرة الذاتية في الأفراد وفي الجماعة، ولكن منهج الأداء يكون مختلاً ضعيفاً، فيُفضي ذلك إلى خلل في الأداء واضطراب فيه. وخذ في ذلك مثلاً مجموعة من الأفراد كُلّفت باستصلاح قطعة من الأرض وتعميرها، وقد توفّرت في أفرادها عوامل

[13] الترابي، حسن عبد الله. **الإيمان: أثره في الحياة**، الكويت: دار القلم، ط2، 1979م، ص328.

القوة المادية والمعنوية من سلامة وإخلاص واستواء شخصية، وتوفرت في المجموعة شروط الوحدة والتآلف والتعاون، إلّا أن منهجية التعامل مع الأرض في طريقة فهم طبيعتها، وطريقة معالجتها بالفلح والزرع كانت طريقةً خاطئةً. إذن حصيلة مباشرتهم التعميرية للأرض ستكون حصيلةً ضعيفةً أو بائرةً، وذلك بسبب من خلل في منهجية التعمير؛ فهماً بالعقل وإنجازاً بالعمل، رغم الرّقي الذاتي الفردي والجماعي.

وفِقْهُ التزكية في القرآن الكريم –كما ضبط قواعد في ترقية ذاتية الفرد تجتمع في القَوام بمظاهر متعددة مثلما بيّناه– ضبط قواعد في تزكية المنهج الذي يكون به الأداء التعميري تفكيراً وسلوكاً. وقد جاء في القرآن الكريم ما يُرشد إلى تلك القواعد، فكان من مقاصده في تزكية الإنسان تزكية منهجه في المعرفة النظرية والعملية، وقد تحقّق هذا المقصد في واقع الأمّة انفعالاً بالقرآن الكريم بأقدار كبيرة كما بدا في حركة الثقافة الإسلامية. وإذا كانت مظاهر هذه التزكية المعرفية كما جاءت مقصداً قرآنياً متعدّدةَ المظاهر، فإننا نقتصر في هذا المقام على التمثيل بمظهر واحد منها بالغ الأهمّية في هذا الشأن، وهو التزكية المنهجية بالتوحيد في الفكر والعمل.

3. تزكية الفكر بالتوحيد المعرفي:

إنَّ العقيدةَ الإسلامية التي هي "الفكرة" الدافعة للعمران تنبني على أساس التوحيد، فهو عمودها الذي يقوم بها جميعاً. والأركان الجامعة للتوحيد هي الإيمان بوحدانية الله تعالى ذاتاً وصفات، ومبدأً في الخلق، ومدبراً للكون، وحاكماً في حياة الناس ومعبوداً لهم، ومنتهى لكل الكائنات في المصير. وبهذا المعنى فما من حقيقة من حقائق الدين الشاملة عقدية كانت أو تشريعية إلا وهي منبثقة عن التوحيد وراجعة إليه، فهو روح الدين كله، الساري فيه مسرى الماء من النّبات، أيّما موضع انسحب منه أصابه الجفاف، وآل إلى التلاشي.

وعقيدةٌ هذا موقعها من الدين من شأنها أن تطبع معتنقيها في ممارستهم للحياة كلها فكراً ووجداناً وسلوكاً بطابع الوحدة، بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائراً في بنيته وغايته على قانون من الوحدة التي تتآلف بها المختلفات، وتتوحّد بها المقاييس، وتلتقي بها

المشارب على هدف مشترك، وذلك ما يبدو نظرياً منطقياً في انطباع الحياة بطابع المعتقد الأساسي، كما يبدو أيضاً عملياً في تجربة التحضّر الإسلامي في كلٍّ من الفكر والعمل، على نحو ما نبيّنه تالياً:

إنَّ التوحيد العقدي في أبعاده المتعدّدة على النحو الذي بيّناه آنفاً من شأنه أن يطبع العقل في سعيه المعرفي العامّ بحيث يجري على مبدأ موحّد في التفسير والتحليل، فإذا هو يرجع كل الظواهر والأحداث في أسبابها ونتائجها إلى ذلك المبدأ؛ إذ لمّا كان الاعتقاد بوحدانية الله وكونه مبدأً للموجودات ومعاداً وتدبيراً شاملاً فيما بينها متمكّناً في النفس بصفة مطلقة، فإنَّ ذلك يُشكّل العقل على خُلق في النظر تردّ فيه الكثرة إلى الوحدة، وتؤالف فيه المعطيات على اختلافها عقلية وحسّية وخبرية لتوحّد في دلالتها على الحقيقة الواحدة.

وما جاء في القرآن الكريم من تكليف بعقيدة التوحيد هو رأس ما جاء فيه من مقاصد تزكية الإنسان، ومن بين أهمّ تلك المقاصد مقصد التزكية الفكرية على معنى ترقية المنهج الإنساني في مساعيه إلى معرفة الحقيقة، ولم يكن التوجيه القرآني إلى ذلك بطريق التلقائيّة والتضمّن باعتبار أنَّ اعتناق توحيد الله تعالى يُثمر توحيداً في الفكر وإنَّما كثيراً ما كانت آي الذكر الحكيم تُرشد بصفة مباشرة إلى وجوب أن يبذل الإنسانُ الجهدَ مصنوعاً ليكون موحّداً في فكره، كما يكون موحّداً في اعتقاده.

ومن أمثلة ذلك ما أرشد إليه الله تعالى في سياق المؤاخذة لفرعون وآله بسبب فكرهم المشتّت تبعاً لعقيدتهم في الشرك؛ إذ قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (الأعراف: 130-131)، فالفكرُ التوحيدي يُفسّر ظواهرَ القحط والرخاء بمبدأ موحّد هو الله تعالى (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ) ولكنَّ آل فرعون عدّدوا في ذلك أسباباً موهومةً من التطيّر بموسى ومَنْ معه في حال القَحْط، ومن استحقاقهم الذاتي للخير في حال الرخاء.

إذا تزكّى الفكر فأصبح فكراً توحيدياً يؤول أمرُه إلى أنْ يفسّر الكون على أنَّه في معرض كثرة موجوداته وأحداثه يرجع إلى وحدة العلّة، ووحدة القانون، فإنَّ كلَّ ما يقع فيه

من كائنات وظواهر وتصاريف إنَّما هي راجعةٌ إلى نواميس موحّدة، ترجع الكثرة فيها إلى وحدة السبب في شكل هرمي، ينتهي إلى السبب الأول الواحد. وبهذا الفكر يفسّر المجتمع أيضاً على أنه في معرض الكثرة في شعوبه وأفراده إنما هو راجعٌ إلى وحدة جامعة بسبب وحدة الأصل ووحدة الغاية، ووحدة المبدأ في تكريم الإنسان بمقتضى الإنسانية فيه، ثم إنه يخضع إلى وحدة في مقياس التفاضل، وهو ميزان التقوى الذي يُوزن به الناس جميعاً. ويترتب على هذا إجراء القانون المنظّم للمجتمع على وحدة في الاعتبار القيمي، ووحدة في الجزاء ثواباً وعقاباً.

إنّ تزكية الفكر على هذا النحو من المنهجية المعرفية ليست أمراً نظرياً بعيد المنال، وإنما هي أمرٌ ميسورٌ، وذلك إذا ما تحقّق التوحيد العقدي على صورته الصحيحة، وإذا ما بُذل الجهدُ المصنوع في سبيل التزكّي في هذا الشأن، والتجربة التاريخية للمسلمين في هذا التزكّي قائمة في واقع التاريخ؛ إذ لـمّا تشبّع المسلمون بعقيدة التوحيد انطلقوا في حركة عمرانهم يبنون معارفهم الكونية والإنسانية بمنهج فكري توحيدي، فإذا هم يباشرون الحياة الإنسانية بنظر يُفسِّر طبيعتها، ويقدّر كل تصاريفها الفردية والاجتماعية على محور موحّد يبنيها على مراد الله تعالى، ويسوقها في ابتغاء مرضاته، وإذا هم يباشرون المادّة الكونية بنظر يفسّرها على وحدة من القانون في تكوينها ومنقلباتها اهتداء بوحدة المكوّن والمدبّر، ثم يضمّ العقل الإسلامي حصيلة النظر الثاني إلى الأول لتنشأ منهما حركة العلوم الإسلامية وتتطوّر منظومة بسلك يوحّدها جميعاً في سياق الغرض الديني الذي به نشأت وتطوّرت أساساً من أسس الإنجاز التعميري في الأرض. ويتبيّن هذا المنهج التوحيدي جليّاً من خلال كلّ من العلوم التي أنشأها المسلمون إنشاءً، والعلوم التي اقتبسوها من الكسب الإنساني السابق، وأدخلوها في دائرة الثقافة الإسلامية.

أمّا العلوم المنشأة فقد كان المحور الذي انتظمت عليه هو القرآن والحديث، فما من علم من علوم المقاصد والوسائل إلا وهي ناشئة بِدَاعٍ من القرآن والحديث، ومبنية على أساس من خدمة الوحي فيهما، وذلك ما بيّنه بإبداع ابن خلدون في تصنيفه للعلوم؛ إذ يقول في مقدمة شرح مطوّل للمنزع التوحيدي في العلوم الإسلامية: "وأصلُ هذه العلوم

النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسّنة، التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلّق بذلك من العلوم التي تهيّئها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملّة، وبه نزل القرآن الكريم."[14]

وأما العلوم المقتبسة من الثقافات الأخرى فقد باشرها الفكر الإسلامي بمنهجه التوحيدي، فأعاد بناء مادّتها بحيث تلتئم مع وحدة الغاية التي قامت عليها العلوم المنشأة، فإذا هي تتخذ لها بعد اقتباسها وضعاً جديداً في دائرة الثقافة الإسلامية، مخالفاً للوضع الذي كانت عليه في ثقافاتها، وهو وضعٌ انتظمت به مادّةً ومنهجاً في السلك الموحّد الذي يُنظم المعارف الإسلامية عموماً، متمثّلاً في خدمة غرض الدين في إقامة العمران، وذلك ما بيّنه ابنُ خلدون في اقتباس المنطق اليوناني مثلاً؛ إذ يقول: "ثم جاء المتأخرون [من الباحثين الإسلاميين] فغيّروا اصطلاح المنطق، وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرسوم... ثم تكلّموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادته، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة، وهي الكتب الخمسة: البرهان، والجدل، والخطابة، والشعر، والسفسطة."[15] وهو ما بيّنه أيضاً في اقتباس علم الفلاحة اليوناني الذي كان مشوباً بالسحر فقال: "..... ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب [كتاب الفلاحة النبطية] وكان باب السحر مسدوداً، والنظر فيه محظوراً، فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك، وحذفوا الكلام في الفنّ الآخر منه جملة."[16] وعلى هذا النحو من المنهج التوحيدي أصبحت العلوم كلها في دائرة الثقافة الإسلامية على شاكلة من الوحدة والتآلف وصفها ابن حزم في تصنيفه للعلوم بقوله: "العلوم كلها متعلّق بعضُها ببعض... محتاجٌ بعضُها إلى

---

[14] ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص401، وراجع في هذا المعنى أيضاً:
– طاش كبري زادة، أحمد بن مصطفى. **مفتاح السعادة**، تحقيق: كامل بكري ومن معه، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1968م، ج2، ص5، 598.

[15] المرجع السابق، ص463. وإنما حُذفت هذه الكتب الخمسة لأنها لا تؤدي إلى الحقيقة في ذاتها، بل هي تستهدف الإقناع ولو بالخطأ.

[16] المرجع السابق، ص465.

بعض، ولا غرض لها إلّا معرفة ما أدّى إلى الفوز في الآخرة."[17] وليس ذلك إلا بأثر من تزكية الفكر على المنهج المعرفي التوحيدي.[18]

4. تزكية العمل بتوحيد الوجهة:

إنَّ عقيدة التوحيد، كما تطبع الفكر بطابع الوحدة المنهجية في النظر، فإنها تفعل الفعل نفسه بالنسبة للعمل السلوكي؛ إذ يكون الاعتقاد بوحدانية الحاكم والمعيد موجهاً لأعمال الإنسان كلها نحو ذات الوجهة، وهي ابتغاء مرضاة الله تعالى بتحقيق مُراده، فإذا تلك الأعمال تصدر عن الإنسان متّحدة في دوافعها، متآلفة في صياغتها، متكاملة في أهدافها ما كان منها فردياً، وما كان جماعياً، وما كان منها حسياً، وما كان معنوياً.

هذا المنهج التوحيدي في السلوك العملي يُفضي إليه الاعتقاد بأن العمل الذي يقوم به الإنسان من أجل الدنيا هو في الوقت ذاته عمل من أجل الآخرة، فعمل الدنيا وعمل الآخرة وحدة متكاملة لا تناقض فيها، وهو ما بدا جلياً في قوله ﷺ لأصحابه: "وفي بضع أحدكم صدقة،"[19] فإتيان الرجل زوجته وهو في ظاهره شديد الدنيوية هو في الوقت نفسه عمل أخروي، يُنال به الأجر. وعلى هذا النحو تُفضي عقيدة التوحيد إلى تكامل عمل الفرد وعمل الجماعة، وتكامل أعمال الفكر مع أعمال الجوارح، وقد ضُرب في القرآن الكريم مثلٌ بديع لهذه الوحدة في العمل، متأتية بتوحيد الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ (الزمر: 29)، فالرجل الذي يكون سَلَماً لِرَجُلٍ، وهو المؤمن بوحدانية الله تصدر أفعالُه منسجمةً موحّدة الوجهة، غير متناقضة كأعمال ذلك الذي يكون فيه شركاء متشاكسون، حيث تتعارض أعماله وتتناقض بتشاكس الشركاء فيه.

وبهذا المنهج التوحيدي في العمل انطلق المسلمون وقد تزكّوا في منهج السلوك انطلق المسلمون يباشرون الكون بالعمل الاستثماري استكشافاً وتعميراً، متوحّدة فيه غاية الدنيا،

---

[17] ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد. **رسائل ابن حزم**، تحقيق: إحسان عباس، القاهرة: مطبعة الخانجي، د.ت، رسالة العلوم، ص90.

[18] النجار، عبد المجيد. **مباحث في منهجية الفكر الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص66 وما بعدها.

[19] مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الزكاة، باب: اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم1007، ص389.

وهي تحقيق المنفعة المادية، وغاية الآخرة، وهي تحصيل الثواب بالتعمير في الأرض. ولو ذهبنا نستروح هذا المعنى التوحيدي في مظاهر التعمير الإسلامي لألفيناه قائماً في كلِّ المنجزات كبيرها وصغيرها، وخُذ إليك في ذلك مثلاً عمران المدينة الإسلامية كيف أن المسجد الجامع يُقام في مركز دائرتها، ثم تحيط به في شكل دائري مؤسسات الإدارة والحكم، فالأسواق والمصانع، فالمساكن والمنازل، فالجنائن والمزارع، وذلك يعكس حقيقة أنَّ أعمالَ الأمة ومناشطها موحّدة كلها بغاية إلهية، وهي التي يرمز إليها المسجد الجامع، متآلفةً فيما بينها في سياق تلك الغاية.

ولعل عزوف التحضّر الإسلامي عن إنشاء الهياكل العمرانية العظيمة المبنى كالأهرامات وبعض آثار الرومان كامنٌ في حقيقة التوحيد العملي التي أصبحت منهجاً للمسلمين؛ إذ إن مبانيهم الوسط تعكس منهجية التوحيد بين تحقيق المصلحة الدنيوية بمرافق العمران من جهة، وتجنّب العقاب على السّرف متمثلاً في التطاول في البنيان بغير مبرّر من جهة أخرى، كما تعكس منهجية التوحيد بين العمل من أجل مصلحة الأفراد، والعمل من أجل مصلحة الجماعة، نقيضاً في ذلك لمباني الأهرامات على سبيل المثال، تلك التي قامت لتحقيق مصلحة موهومة للفراعنة وهي حفظ قبورهم، مناقضة في ذلك لمصالح الملايين من الناس الذين قضوا نحبهم في أعمال التشييد، أو عانوا الخصاصة لاستنزاف أموالهم بسبب ذلك التشييد. وهذا المنهج التوحيدي في العمارة الإسلامية هو الذي أرساه تطبيقياً عمرُ بن الخطاب ﷺ في بداية نهضة العمران الإسلامي؛ إذ "تقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقرّبكم من السَّرف ولا يخرجكم عن القصد."[20]

ومن أكبر التصرفات الإسلامية دلالة على وحدة العمل ما كان من توحيد بين الأعمال الروحية والأعمال المادية، وهو ما بدا جلياً في ظاهرة الزهد الإسلامي القويم، فعلى خلاف حضارات أخرى ناقضت بين أعمال الروح وأعمال المادة فمالت إلى أحد

[20] ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص323. وقد أورد ابن خلدون تفسيراً لهذه الظاهرة يقوم على اعتماد قصر زمن التحضر الإسلامي سبباً في عدم تمكن المسلمين من تضخيم الهياكل العمرانية والأبهة فيها.
ولا نرى أن ذلك تعليل موفّق.

الطرفين على حساب الآخر، نجد الزهد الإسلامي نشأ جمعاً بين الأمرين: أعمال لتصفية الروح، وأعمال للتعمير المادي، وذلك ما كان متجلياً مثلاً في الرُّبط والمحَارس التي أقيمت على سواحل إفريقية منذ أواسط القرن الثاني، ثم امتدت من أقصى المغرب إلى الإسكندرية. وفي هذه الرُّبط كانت تتناسق أعمال تغذّي الروح على منهج من المرابطة الجهادية، وأعمال من الوصال الاجتماعي بمباشرة التعليم والتربية لعامّة المسلمين، وأعمال من النشاط الاقتصادي بمباشرة الزراعة وتعمير الأرض من قبل المرابطين لما حولهم من الأرض، حتى أصبح الرباط بهذا العمل التوحيدي: "عاملاً من العوامل الثقافية في تكوين الروح الثقافية بالمغرب واتساعها وترسيخ آثارها في النفسية الشعبية، ووصل ما بين العناصر الاجتماعية بسببها."[21]

وهذا المنهج في العمل التوحيدي هو الذي امتدّت به الربط في سلسلة صحراوية طويلة توازي السلسلة الساحلية، فقامت الحركة السنوسية في أوائل القرن التاسع عشر توحّد في فعالية عجيبة بين أعمال في الزهد روحانية، وأعمال جهادية تربوية، وأعمال تعميرية اقتصادية زراعية وصناعية،[22] فكانت مظهراً بديعاً للتوحيد في العمل يمثّل بحقّ مجالاً في التزكّي العملي بوحدة الوجهة والغاية.

إنَّ قراءة القرآن الكريم انطلاقاً من توجيهاته وأحكامه قراءة تكاملية تُسفر يقيناً فيما يتعلّق بتزكية الإنسان في بُعده الفردي عن أنَّ مِنْ مقاصده العظيمة تزكية منهجه المعرفي في الفكر ومنهج سلوكه في العمل، على أساس من التوحيد في كلٍّ منهما، حتى إذا زَكّى الإنسانُ نفسَه تزكيةً تقويميةً وتزكيةً منهجيةً استعدَّ إلى أداء المهمّة التي من أجلها خُلق؛ وهي مهمّة التعمير في الأرض، فإذا لم يتزكّى بحسب هذا المقصد القرآني المطلوب باء بالفشل في أداء تلك المهمّة، وارتدّ إلى أسفل سافلين.[23]

---

[21] ابن عاشور، محمد الفاضل. **أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي**، تونس: مطبعة النجاح، 1965م، ص17.

[22] انظر هذا المنهج التوحيدي للسنوسية في:
– أرسلان، شكيب. **تعليقات على كتاب حاضر العالم الإسلامي** لمؤلفه لوثروب، بيروت: دار الفكر العربي د.ت، ج2، ص140 وما بعدها.

[23] النجار، عبد المجيد. **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، ج1، ص53 وما بعدها.

ثالثاً: تزكية الإنسان جماعةً

إذا كانت المهمّة التي كُلّف بها الإنسان هي عمارة الأرض فإنَّ هذه المهمّة لا يمكن أن تنهض بها إلا جماعةُ الإنسان، ومهما يكن من تزكية الإنسان الفرد في ذاته فإنه لا يقدر في حال التفرّد أن يُنجز تلك المهمّة، فيكون الاجتماعُ الإنسانيُّ إذن ضرورةً حتميةً لتحقيقها، والترقّي في الأفراد لا يُفضي بالضرورة إلى ترقّي الجماعة، وإن كان شرطاً من شروطه، فينبغي إذن أن يُضاف إلى تزكية الإنسان الفرد تزكية الإنسان الجماعة، وهو ما جاء في القرآن الكريم مقصداً قائماً بذاته، مُضافاً إلى مقصد تزكية الفرد في نطاق المقصد العامّ؛ مقصد تزكية الإنسان.

وتزكية الجماعة تزيد على تزكية الفرد باعتبارات قائمة على ما رُكِّب في الإنسان من فطرة التمدّن التي يميل بها الإنسانُ إلى أخيه الإنسان بالتعاطف والتراحم والتحابب والتناصر، وعلى ما تقتضيه خصوصيات الحياة الجماعية من الشراكة في المرافق والمصالح والأهداف. وبناءً على ذلك فإنَّ التزكية الجماعية تستلزم فقهاً زائداً على فقه التزكية الفردية، وهو فقه إذا أُخذ بقواعده ارتقت الجماعة في ذاتها وخرجت قدراتها التي أودعها الله تعالى فيها بالقوّة إلى الفعل وحقّقت بقدر ذلك القدرة على أداء أمانة التعمير، وإذا اختلّت تلك القواعد ارتكست الجماعة إلى حال العطالة، وأخلدت إلى الأرض، وقصرت عن أداء تلك المهمّة.

وإذ قد خُلق الإنسان على فطرة الازدواجية بين عوامل متقابلة في شأن الحياة الجماعية، فأنانيةٌ واستئثارٌ وحبٌّ للاستحواذ يقابلها نزوعٌ إلى الحياة المشتركة والتعاون على مقتضياتها وما يتطلّبه ذلك من الإيثار والتفاني ونكران الذات، فإنَّ تحقيق الحياة الجماعية الفاعلة المنتجة لا تتمّ إلّا بجهد يبذله الإنسان في اتّجاه مجاهدة للنفس من أجل الجماعة، وتبذله الجماعة من أجل أن ترتقي في سُلَّم التآخي والتراحم والتناصر والتعاون، فهي إذن تزكيةٌ جماعيةٌ، تنطلق من ذات الفرد لتهيئته للحياة الجماعية كما مرّ بيانه، وتنتهي إلى أن تصبح الجماعة كأنها الفردُ الواحد في رعاية أعضائه وتحقيق مصالحه وأهدافه، وبذلك الجهد المزدوج تكون التزكية الجماعية التي تخرج قدرات الجماعة الإنسانية من القوّة كما قدّرها الله إلى الفعل المؤهّل لأداء مهمّة العمران.

ولعلّ جماع الفقه في التزكية الجماعية هو ما عبّرت عنه الآية الكريمة بالتعارف في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13)، فالتعارف في هذا المقام إنما المقصودُ به رجوع الكثرة من الأفراد على تعدّدهم القبلي إلى وحدة متعاونة على ما يكون به قَوام الحياة الجماعية، وما يكون به تحقيق أغراضها، وإنما عبّر عن التعاون بالتعارف، لأنَّ هذا أصل لذلك، وهو شرط من شروطه، فهو إطلاق لاسم الشرط على المشروط، أو السبب على النتيجة، وذلك رائجٌ في لسان العرب.[24] وللتعارف بهذا المعنى الذي انتهينا إليه وحدّدناه قاعدةً جامعةً لفقه التزكة الجماعية مظاهر وتحقّقات متعدّدة، يعتبر كلُّ واحدٍ منها قاعدةً فرعيةً للقاعدة الأساسية الجامعة.

1. التزكية بالتعارف التكافلي:

ومعناه أنْ يقومَ كلُّ فردٍ وكلُّ مجموعةٍ في المجتمع مقام الكفيل لكل الأفراد والمجموعات الأخرى على قدر الوسع، والكفيل، كما شرحه أحد المفسّرين هو "الشاهد والضامن والرقيب على الشيء، المراعي لتحقيق الغرض منه."[25] وهذا المعنى الجامع للكفالة هو الذي نقصده في هذا المقام وصفاً لعلاقة اجتماعية يكون فيها الفرد والمجموعة رعاة للآخرين من الأفراد والمجموعات في اتجاه متبادل، رعاية تهدف إلى تمكين ذوي القصور والعجز والحاجات والأرزاء من الارتقاء إلى حال القدرة على أداء مهامّهم، والوفاء بأغراض حياتهم بتخليصهم مما حلَّ بهم من العوائق المعطّلة دون ذلك.

[24] كثير من التفاسير التي اطّلعنا عليها وقفت بالتعارف عند معناه الظاهري، وذلك بالرغم من ذكر أن الآية نزلت بمناسبة استوجبت النهي عن التفاخر واللمز والتنابز مما يقوم قرينة على أن التعارف المأمور به هو المقتضي لأضداد هذه، من وحدة ووئام وتعاون، فمجرّد معرفة الناس بعضهم بعضاً لا يؤدّي الغرض في معالجة سبب النزول. هذا وقد أورد ابن عاشور تفسيراً اعتمدنا عليه في المعنى الذي حدّدناه ونصّه ما يلي: "كان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إيّاه نظاماً محكماً بربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذّر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم ببثّ عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعمّ أمة أو يعمّ الناس كلّهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم." انظر:

– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج26، ص260.

[25] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج14، ص262.

ويكون تعارف التكافل مادياً كالإيفاء بحاجات الفقراء والمحتاجين، والقصر من لوازم العيش الكريم، كما يكون معنوياً بالمواساة والتسرية عن المأزومين والمنكوبين، وبالتعليم والإرشاد للجهلة والضالين، وجماع هذا التعارف قوله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمّى."[26] والتداعي بالسهر والحمّى ليس في حقيقته العلمية سوى تجنّد جهاز الدفاع في سائر الأعضاء لنجدة العضو المصاب وكشف العطب عنه.[27]

وحينما يفشو في المجتمع هذا التعارف، فإنَّ القافلة الجماعية تكون جهودها متنامية بإسهام جميع أفرادها أو أغلبيتهم الساحقة، ويقلّ فيها المعطوبون إلى حدٍّ كبيرٍ، فلا يأخذون من الجهد ما يرجع إلى الخلف لمعاناتهم، وبذلك تتسارع وتيرة التقدّم في الإنجاز العمراني، وذلك ضربٌ من الترقّي الجماعي؛ إذ هو مُفضٍ إلى الخلوص من أكدار المآسي الحاصلة بالشدائد والكروب من جهة، وإلى الاقتدار على الإنجاز والفعل من جهة أخرى.

وليس هذا التكافل الجماعي بالأمر الذي يحصل بالتلقائية نظراً للعوامل المتقابلة فيه كما بيّناه، وإنما هو يتحقّق بجهد فردي وجماعي مدافعة للهوى، وترتيباً للجهد الجماعي في اتّجاه موحّد؛ ولذلك جاء القرآن الكريم يدعو بأحكام كثيرة إلى هذا التكافل في بُعديه المعنوي والمادّي، كما بدا في الأوامر المتواترة بالتآسي والتراحم والتناصر والإنفاق المالي بالزكاة والصدقات والقربات، ومن ذلك في القرآن الكريم من الاستفاضة ما ينتج يقيناً بأنّ التزكية الجماعية بالتكافل مقصد من مقاصده المعتبرة.

2. التزكية بالتعارف الشورى:

ومعناه أنْ يتطارح أفرادُ المجتمع قضاياهم ومشاكلهم للمداولة فيها، بحثاً وتحليلاً وتعليلاً وإبداء رأي، وأن يكون ذلك سنّةً متفشيةً فيهم، شاملةً للأفراد كلِّهم، ومستوعبةً لأمور الحياة جميعها في دوائر متواسعة، بحسب تنوعّ الأمور من جهة، والقدرة على إبداء

---

[26] مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: البرّ والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم 2586، ص1041.

[27] يقع في وَهْم كثير من المسلمين أن هذا التكافل أو كثير منه يدخل في باب النّفل، فآل معظمه إلى الضياع، والحقّ أنه واجب ديني في حق الأفراد والمجموعات، والشواهد على ذلك كثيرة يؤكد بعضها بعضاً، انظر في هذا الموضوع: – سابق، السيد. **فقه السنة**، القاهرة: دار الريان للتراث، ط2، 1990م، ج1، ص484 وما بعدها.

الرأي من قبل المستشارين من جهةٍ أخرى. وقد تنزّلت الشورى في النظام الإسلامي بهذا المعنى الشمولي أصلاً من أصول الدين، يتّصل أساساً بمبدأ الاشتراك في تعمير الأرض وتحمّل المسؤولية في ذلك، ويتأكّد بالعموم الذي جاء محفوفاً في طلب الاستجابة بالصلاة قبله، والزكاة بعده، وهما من أركان الدين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الشورى: 38). فتكون الشورى بذلك قانوناً للحياة الجماعية كلِّها، خلافاً لما استقرَّ في بعض الأذهان من أنها شأنٌ من شؤون السياسة دون غيرها.[28]

وبمسلك الشورى على هذا النحو الجامع تتكاثف طاقاتُ المجتمع في المعرفة النظرية والخبرة العملية، وتتقابل في حوار نقديٍّ يتحصحص فيه الحقُّ فيما ينبغي أن تجري عليه حياة الناس، فهي بذلك حركة تقدّمية ترتقي بالجماعة في سبل مصالحها التي لا تنتظم إلا على أصول من الحقِّ، وهي أصولٌ يعزُّ على المستبدّ فرداً أو مجموعة أن يتوصّل إليها باللون الواحد من الرأي كما تشهد بذلك أخطاء المستبدّين في القديم والحديث.

ومن جهة أخرى فإنَّ شراكةَ الأفراد في المداولة وإبداء الرأي في أمور الحياة، ثم الانتهاء إلى وجه يكون عليه العزم، من شأنه أنْ يشعر الجميع بأنهم من ذوي الشأن والمسؤولية في تصريف الحياة، وأنَّ الوجه الذي وقع الانتهاء إليه هو وجهٌ شاركوا هم في صناعته بصفة مباشرة أو غير مباشرة، فتنشأ في النفوس الهمّة لتنفيذه بإحسان، ورعايته حال التنفيذ بوجوه الملاحظة والرصد لتعديله وتجويده بحيث يحقّق المصلحة في أعلى درجاتها، ولا يصدّ النفوس عن ذلك صادّ من الاستهتار واللامبالاة حينما تكون الآراء التي تعالجها الجماعة بالتطبيق مسقطة عليهم بالاستبداد، فتؤول في الواقع إلى البوار حتى وإن كانت في ذاتها حقاً، وهل بوار المسلمين منذ عهود في مشاريع نهضتهم –في شطر كبير منه– إلّا نتيجة لاستهتار الشعوب بها بسبب من الاستبداد المسلّط عليها؟

---

[28] انظر تأصيلاً للشورى الإسلامية، مقارناً بالديمقراطية الغربية في:

– الترابي، حسن. "الشورى والديمقراطية: إشكالات المصطلح والمفهوم"، **مجلة المستقبل العربي**، س8، عدد75، أيار/مايو 1985م، ص4–22. انظر أيضاً بحثاً عميقاً مؤصّلاً للشورى في:

– الشاوي، توفيق. **فقه الشورى والاستشارة**، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، 1992م.

وإذا دُمج بمسلك الشورى عاملٌ نفسيٌّ من قوّة الإرادة في تحمّل التنفيذ إنجازاً ورعايةً إلى عامل الضمان بالوصول إلى الحقّ في القدر الأكبر من الإمكان بناءً على التداول الواسع للرأي، فإنَّ الجماعة بهذين العاملين تترقّى صعداً في قوّتها، وتحقّق بالفعل ما كان كامناً فيها من القدرات بالقوّة، فتزكو في ذاتها، وتزكو في حركتها، بما تصيب من الحقِّ في الفكر، ومن الإحسان في تنزيله على واقع الحياة، وعلى هذا الأساس عددنا التعارف الشوري قاعدةً من قواعد فِقه التزكية الجماعية.[29]

3. التزكية بتعارف التآمر بالمعروف:

قد تتوصل أمّةٌ ما بالشورى إلى وجوه الحقِّ، وإلى العزم على تنفيذه، ولكن تطرأ عليها الملابسات الداخلية أو الخارجية، فإذا ما عرفت من الحقِّ وعزمت عليه تناله وجوه من الغفلة أو الفتور عند بعض المجموعات أو الأفراد، فيصير معطّلاً في الأذهان أو في الأعمال، بل قد يتناوشه الباطل فيحلُّ محلَّه في موقع أو في آخر. ولتفادي هذا الانحراف الذي قد يرد على المجتمع تأتي قاعدة تزكوية حافظة، هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتعني هذه القاعدة أنْ يقومَ الأفرادُ والمجموعات في نطاق الأمّة مقام الحارس الاجتماعي الذي يرصد السيرورة الحضارية للمجتمع، فإذا ما رأى مبدأ ممّا تعارف عليه الناس قد أهمل بغفلة أو فتور نبّه إليه، وحشد من أجل عودته في الأفهام والأعمال، وكذلك إذا ما رأى مظهراً من المنكرات الخارجة عن المألوف الذي أقرّه المجتمع بعد التشاور نبّه إليه، وحشد من أجل إزالته. وهكذا يتكوّن بهذه القاعدة منزع اجتماعي عامّ يحرس مسار الترقّي الجماعي من أن يفتر أو يزيغ وينحرف، وكأنه جهازُ مناعة يعالج ما يصيب الحياة الاجتماعية من حياد عن خطّ الترقّي، بل إنّه يوفّر لها أسباب السّداد قبل أنْ تقع في الحياد.

وقد جاء في القرآن الكريم تقرير متكرّر لهذا المبدأ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

[29] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج4، ص144، وج25، ص111. راجع في ذلك: الشورى وفوائدها الاجتماعية.

تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ (آل عمران: 104-105). وفي التعبير بالمعروف والمنكر إيماء إلى أنَّ المقصود بالرعاية والحفظ هو الخط العام الذي اختطّه المجتمع لنفسه بالتشاور، قطعاً في ذلك لطريق الآراء المتسلّطة المعبّرة عن وجهات خاصّة لأفراد أو لمجموعات. وحينما يغيب هذا الأدب الاجتماعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ المجتمع يصير عرضة للانتكاس عن مساره في الترقّي، وذلك ما صوّره قوله ﷺ: "كلّا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخُذنَّ على يد الظالم، ولتَأْطِرُنَّه على الحقِّ أطراً، ولتقصُرنَّه على الحقِّ قصراً، أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم بعضاً."[30] فغيابُ هذه القاعدة في التعارف يُفضي إلى تصدّع البناء الاجتماعي باختلاف القلوب، وذلك نكوسٌ في طريق الترقّي المجتمعي.[31]

إنَّ هذه القواعد الثلاث تتكامل في تزكية الجماعة من أجل تأهيلها لأداء مهمّتها التعميرية، فالتكافلُ يحشد القوى الفردية ويكتّلها ويصنع اللحمة الجماعية، والتشاور يرشّد الرأي والعمل، فيسدّدهما إلى الحقِّ والخير، والتآمر بالمعروف يعصم من الزّيغ، ويحفظ السيرورة على خطّ الترقّي السّوي. ولو تأمّلنا في ضعف الجماعات وقصورها في أدائها الحضاري لوجدنا الأسباب المتعلّقة بالجانب الجماعي لا تخرج عن الخلل في هذه القواعد بعضها أو كلّها؛ ولذلك عددناها قواعد أساسية في التزكية الجماعية، ولِتواتر ما جاء فيها من بيان قرآني ومن أحكام شرعية فإنّها أصبحت تمثّل مقصداً قرآنياً هو مقصد تزكية الإنسان فرداً وجماعة.

خاتمة:

تناول الباحثون في القديم والحديث سُبل تزكية الإنسان، وأخذ ذلك حيّزاً مقدّراً من جهودهم العلمية التربوية، وأُقيمت عليه مذاهب بأكملها اتّجهت إلى أخذ الإنسان بتربية

[30] أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. **سنن أبي داود**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1999م، كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي، حديث رقم 4336، ص473.

[31] انظر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عامّة:

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، 1976م. وانظر في مجمل هذه المعاني في:

- النجار، **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية**، مرجع سابق، ج1، ص58 وما بعدها.

نفسية وعملية، ترتقي به في إنسانيته إلى أفق من الاكتمال ما كان ليبلغه لو بقي يستجيب للمطالب التي يقتضيها تكوينه الفطري في غفلة عمّا تستلزمه مهمّة العمران من تنمية مكسوبة لما خُلق عليه من القدرات.

غير أنَّ الجهود التي بُذلت في هذا الشأن اتّجهت في أغلبها إلى تزكية الإنسان في بُعده الفردي، ولم يكن لتزكية الإنسان في بُعده الجماعي إلا الحظّ اليسير، كما اتّجه أغلبها في تزكية الفرد إلى بُعده الروحي تصفية بالفضائل والعبادات وترويضاً للنفس على كبح الشهوات واكتساب الفضائل، وكلُّ ذلك كان في الغالب من أجل الخلاص الفردي في يوم الحساب، وكان عند البعض مقترناً بهجران مشاغل الدنيا والقعود عن أيّ كسب مادّي فيها.

وفيما نقدّر فإنّ تزكية الإنسان كما هي في المقصد القرآني تتجاوز تزكية الفرد إلى تزكية الجماعة، وتتجاوز تزكية البُعد الروحي في الفرد إلى الأبعاد الفكرية والإرادية والجسمية، ويتأسّس كلُّ ذلك على وعي الإنسان بحقيقة نفسه ومهمّته في الحياة، ووعيه بمنزلته في الكون، وذلك ما حاولت هذه الورقة بيانه.